تفريغ خطبة

ربط الفتوى بالنص

للشيخ:

أبي قتادة
عمر بن محمود

1438هـ - 2017م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفريغ

خطبة

ربط الفتوى بالنص

للشيخ/ أبي قتادة الفلسطيني

(عمر بن محمود)

حفظه الله

مُؤسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

(١٤٣٨ - ٢٠١٧م)

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حقَّ جهاده حتى أتاه اليقين، وتركنا رسول الله -ﷺ- على المَحَجَّة البيضاء والطريق الواضح، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ولا يتنكَّبُها إلا ضال.

أما بعد:

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالًا مبينًا بعيدًا.

أيها الأحبة في الله؛ جذور الأعمال بحسب قوله -سبحانه وتعالى- مرتبطة بالحب والخوف، بالرغبة والرهبة؛ فما مِن عمل يقوم به الإنسان سواءً بإرادة لفعل أو لترك فعل إلا وجذور هذا الفعل يرتبط بالمحبة والخوف، وهو أمر باطن دعا الشرع ودعا الله -عز وجل- إلى تنميته وإعلاء شأنه، والأمر الباطن هو الذي يُقيم له الشرع ويُقيم له الله -عز وجل- عظيم الشأن، فلا قيمة لظاهر من غير باطن ولا قيمة لعمل من غير قلب؛ لأنه حينئذٍ يفقد جذره، وإذا فقد جذره فلا أجر عند الله -عز وجل- لهذا العمل.

فالمحبة والخوف هما جذرا كل عمل يقترفه الإنسان ويُقبل عليه، المحبة هي تلك القوة الدافعة لتحصيل العمل الصالح الذي تحب أن تُرضي آمِرك فيه، والمحبة فيها كذلك قوة الكبح -أي المنع- وهي التي تصنع الحياء، المحبة تصنع الحياء، والتي تمنعك -أي هذه المحبة- من اقتراف ما يعصي ويُغضِب محبوبك. وكذلك الخوف فيه قوة دافعة لتحصيل الخير لئلَّا يغضب عليك مولاك، وفيه قوة كابحة مانعة حتى لا تقع فيما حذّرك مولاك إن عصيته، خوف من النار، خوف منه، من غضبه، محبة له، وحياء منه، هذه هي جذور الأعمال.

ولذلك الحكم الشرعي هو خطاب الله للمكلَّفين، وإذا التقى عمل مع عمل يعمله الإنسان ليس دافعه هو الرَّغبة من تحقيق أمر الآمر فلا يسمى هذا العمل عملًا شرعيًا؛ لأن العمل الشرعي هو تطبيق حكم الله، وحكم الله هو خطاب الله تعالى للمكلَّفين، ولذلك قال سلفنا: لا بد من أن يتكيَّف العمل على وِفق مراد الشَّرع حتى يسمى هذا العمل عملًا شرعيًا؛ فلا بد فيه من الإخلاص، والإخلاص دافعه محبة الله -عز

وجل-، ودافعه الخوف من الله -عز وجل-، ودافعه تحقيق ما وعد الله -عز وجل-، والهرب مما حذَّر، ولا بد من متابعة النبي -ﷺ-، هذا هو العمل الذي يسميه ديننا الذي نتديَّن به أنه عمل صالح، وأنه عمل شرعي.

وقد ربط الله -عز وجل- كثيرًا من الأعمال من أجل قضية الغيب، لأن الغيب حقيقة كما أن الشهادة حقيقة، الناس ربما ينظرون إلى عالم الشهادة ويعرفون أسبابها وكيف تتحرَّك مع جهلهم بكثير من الأعمال التي تقع في عالم الشهادة ما هي أسبابها؟ كيف يهتدي المرء؟ كيف يهتدي العبد مهما كان؟ إلى ارتباط قضية نزول المطر بالاستغفار وكثرة الرزق به؟ وكيف يرتبط في ذهن الإنسان بين حدوث الفقر وأكل الربا؟ أو بين حدوث الزلازل وبين ترك الزكاة؟ هذه ارتباطات سُننيَّة جاء الشرع ببيانها، وكيف يهتدي المرء إذا نهق الحمار أنه له ارتباطًا برؤية الجن أو الشياطين، وأنه إذا سمع ديكًا يصيح أنَّ له ارتباطًا برؤية الملائكة، هذه قضايا سننيَّة لها تعلُّق بعالم الغيب.

ومِن هداية الله -عز وجل- للإنسان الذي يؤمن ببعثة النبي -ﷺ- أن يعرفها وأن يتعامل معها، وأن يتوافق عملُه مع مُقتضاها لتحصل السعادة له في دُنياه وفي أخراه.

ومن هنا كان لا بد للفقه حين يتحدَّث فيه الفقيه وحين يفتي فيه المفتي أن ينظر إلى هذين الأمرين؛ الأمر الأول الذي ذكرناه وهو: جذر العمل، النظر إلى أمر المحبة وأمر الخوف، إلى تحقيق الرضا الإلهي. والأمر الثاني الذي يجب أن يراعيه المفتي وينظر إليه بالتالي من استفتاه وهو: أمر ارتباط العمل بعالم الغيب.

ومن هنا كان الحديث النبوي، وقبل الحديث كانت الآيات القرآنية عظيمة في إعطائها طريقة الفقه والأحكام، لأن الحكم هو نهاية الأمر، والعمل هو نهاية الأمر، فلا بد من الحديث عنها، أي عن جذورها وعن ارتباطها بعالم الغيب موصولة تمام الصِّلة بحديث النبي -ﷺ-، فما من حكم شرعي قاله الشَّارع إلا ورَبَطَه بنتيجته، وربطه كذلك بأصله من محبة الله ومن الخوف منه ومن تحقيق الإخلاص له، ومن ارتباطه بعالم الغيب الذي هو حقيقة.

نقول إن عالم الغيب حقيقة كما عالم الشهادة، بل هو في جَرَيَانِه أكثر صَرَامة مِن عالم الشهادة، وهو من السُّنن التي يغفل عنها كثير من دارسي السنن على طريقة الأغيار والكفار في دراساتهم وأبحاثهم عمَّا يسمى

بدراسات النفس والمجتمع، فهم لا ينظرون إلى عالم الغيب ولا يهتمون بنتائجه، لا ينظرون إلى نزول الملائكة، لا ينظرون إلى تحقُّق البركة مع القلة في التقوى، لا ينظرون إلى مَحْق البركة مع الكثرة والمعصية، لا ينظرون إلى هذا، ولذلك هم في غفلة شديدة عن دراسة السنن كما ذكرها القرآن الكريم.

والفقه -يا أيها الإخوة الأحبة- هو فقه الحديث، ولذلك كان من الواجب على المفتي أن يجيب سائله بالنص ما استطاع، إذا سأل مستفتٍ مفتيًا على المفتي أن يجيبه بالنص؛ لأن النص هو مع تمام ظهوره وبيانه إلَّا في بعض درجات الفقه إلا أنَّ الله -عز وجل- يخفي الكثير من المعاني من أجل أن يتمايز الناس، ومن أجل أن يبتليهم بالاجتهاد كما ابتلاهم بالطاعة، كما قال الإمام الشَّافعي ومن بعده ابن جرير الطبري -عليهما رحمة الله-، أي أن الله يخفي من المعاني في باطن النص ابتلاءً للبشر؛ أي امتحانًا لأنها طاعة، أي يبتليهم بالاجتهاد.

وكذلك -سبحانه وتعالى- يخفيها ليتمايز الناس حتى يكون هناك فرق بين عالم يغوص إلى الدُّرر والجواهر الباطنة وبين إنسان عادي إنما هو يقف مع الظواهر، وليس هذا كلامًا يتوافق أبدًا مع الباطنية الذين يقولون بوجود باطن وظاهر وأن الباطن يخالف الظاهر كلية أو جزئية.

القصد أيها الإخوة؛ كان الواجب على الفقيه -أي فقيه- أن يفتي الناس بنص الكتاب ويفتي الناس بنص السنة، لماذا؟ مع أنه هذه الطريقة مع ما فيها من الخير من اطمئنان المستفتي أن المفتي قد أجابه بحكم الله فهو يرتبط بأن الله قاله وأن رسوله -ﷺ- قاله، ولم يكن دور هذا المفتي إلَّا أن نقل هذه الفتوى لهذا الرجل، كما قال الإمام الشاطبي: "ما العلماء إلا وسائط في تبليغ الحكم الشرعي"، فهذا يصنع الاطمئنان، ويحصل برد اليقين في القلب إذا سمع المرء: "قال الله.. وقال رسوله..".

ولكن المسألة فيها جانب آخر عظيم وهو أن الحديث النبوي وقبله الآية القرآنية إنما تخلط الحكم بجذوره وبنتائجه؛ عندما يستفتي مستفتٍ يقول: ما هو حكم الربا؟ فإذا قال له المفتي فقط: هذا حرام، وقد حرَّمه الله -عز وجل- في كتابه، انتهى الموضوع، أخذه أخذًا مجرَّدًا أشبه هذا اللفظ بالرقم الذي لا روح فيه، "حرام"، ويحتاج المرء إلى درجة عالية من التقوى ومن العلم حتى يتذكر ثِقل وعظمة كلمة الحرام في نفسه، فيحتاج إلى جهد ومشقة، وربما يكون جاهل في معرفة ما هو الحرام، مثل قولهم "مكروه"، هذه كلمة الآن

على نفوس الناس يسيرة، إذا قيل له: هل هو حرام أم مكروه؟ فكلمة "مكروه" لا تبسُط سلطانها وسيطرتها على نفس الإنسان من الإعراض عن العمل، ولكن لو قال له: نعم أنت تسال عن الربا والله عز يقول: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}، انظر إلى هذه الآيات مع إعطائها الحكم الشرعي بطريقتها ومنهاجها في تربية المستفتي من خلال لفظها، انظر اليها ماذا قدمت لك؟

يقول الله -عز وجل-: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} فورًا نقلت هذا الإنسان السَّامع إلى عالم الغيب، إلى موقف القيامة، إلى شهود الناس ووقوفهم بين يدي ربهم -جلَّ في علاه-، {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ}؛ فيها قيامة من القبور، ذِكر لقضية الغيب وإحضار لها، {إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} والناس يرون هذه الصورة في واقعهم في أولئك الصَّرعى المجاذيب الذين تتملَّكهم الشياطين فتصرعُهم حينًا ويقومون حينًا آخر.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا}؛ هذه نتيجتها ربما يأكل المرء الربا ولا يقول إنه حلال، ولكن استِمراء المرء على أكل الربا سيؤدي به إلى البحث عن مسوِّغاتٍ من أجل تحليله، فنتيجتهّ: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} حتى إذا وصل الحكم الشرعي إلى نهايته كان قد مهَّد نفسيَّة المسلم السامع لهذه الآيات إلى تحقيق المراد من تطبيق الحكم الشرعي.

عندما تقرأ حديثًا للنبي -ﷺ-، إذا سألك مستفتٍ وقال لك: ماذا أصلي قبل الفجر من الفريضة هل هناك سنة للفجر؟ فيجيب المفتي بقوله: قال ﷺ: (ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها)، ففي هذا النص مع إعطاء حكم شرعي بخلاف ما لو قال: رجل ما هو حكم ركعتي الفجر أو هل هناك ركعتا فجر؟ فيقول لك المفتي: "نعم، وهما سنة".

والناس لا تندفع نفوسهم وجذور قلوبهم إلى كثير من الألفاظ التي رتَّبها الفقهاء فأسقطت كثيرًا من الاعتبارات في الحديث الذي نذكره، والناس في هذا الزمان خاصة وفي كل زمان على وجه العموم إنما يبحثون عن منافِذ لنفوسهم للتَّحلُّل من التكاليف والولوغ في المعاصي على طريقة الحِيل أو ما شابه ذلك، فأنت تقول له: "قال ﷺ" فورًا أنت ربطته بصاحب الشرع الشريف، وبيَّنت له من هو الذي يحق له أن

يجيب على هذه الأسئلة، ومن له الحق أن يبيّن أمرها، فقال رسول الله -ﷺ- قفزت به كأنه يسمع من رسول الله -ﷺ-، ولذلك قالو عن أهل الحديث:

"أهـــل الحـــديث هـــم أهـــل الرســـول لم يصـــحبوا نَفْسَـــه أنْفَاسَـــه صَـــحِبوا"

وإن

قال رسول الله -ﷺ-: (ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها)، إعطاء قيمةٍ وعظمةٍ لهذا الفعل، وتحقير غيره مما تنشدُّ النفس بغريزتها وبفطرتها إلى جَنْبه وجَمْعه.

ولهذا قال العلماء: ربما يرِد الحديث الواحد في حكم المسألة ولكن ترِد عشرات الأحاديث في بيان فضائل هذه المسألة، ربما لو نظرتم ومن يتابع مع إخوانه في دروس الفقه ربما يجد بابًا عظيمًا من أبوب الفقه إنما علاجه فقهيًا في بعض الأحاديث، في حديث واحد أو في حديثين أو في ثلاثة تُعالَج المسألة بهذا الكم اليسير من الأحاديث، لكن لو رجعت إلى فضائلها ورجعت إلى ما بيَّن الشارع وبيَّن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما فيها من فضائل وما فيها من قيم وما فيها شدّ وجذب لعالم الآخرة لوجدت الأحاديث الكثيرة.

فهذه طريقة مهمة من أجل ربط المرء بجذور العمل، بمحبة الله وبالخوف منه، بمحبة الجنة والخوف من النار. هذه مسألة مهمة يجب علينا أن نهتم بها؛ ولذلك كان شأن العلماء الأوائل في تصنيفهم لكتب الفقه أن يذكروا حديث رسول الله -ﷺ- ويبوّبوا عليه الأبواب، وربما علقوا بعده يسيرًا من الكلمات، (الموطأ) للإمام مالك هذا كتاب فقه، على أي طريق رتَّبه؟ ذكر الأبواب أي تلك المعاني التي يريد أن يبيّن حكمها، وذكر وراءه الحديث، ثم ذكر بعده شيئًا من كلامه من أجل أن يُفصِّل أو يشرح أو يرُدَّ على المخالف بيسير من الكلمات، فـ(الموطأ) هو حديث النبي -ﷺ- ولكنه كتاب فقه، فأنت تقرأ الفقه من فم الشارع مع تلك المعاني التي ذكرناها.

هذه طريقة مهمة لبقاء الرَّبط بعالم الغيب، وإلا لو نسي المرء وانقطعت هذه القضية حينئذٍ المفتي والمرء ينسى، وكما قال النبي -ﷺ-: (إني أنسى كما تنسون)، والناس ينسون، فإذا انغمس المفتي بترك هذه الطريقة كان همُّه هو ربط جذور هذا العمل بالدنيا.

ولذلك نأتي إلى النقطة الثانية وهي: ربط العمل بعالم الغيب.

كثير من الأحكام الشرعية فيما تعلَّق بعبادة الرجل المتديّن العابد لا بد أن يربطها بعالم الغيب، ومحاولة إبعاد هذه الصفة تُوقِع المفتي في كثير من المشكلات حتى من جهة الفقه؛ مثلًا النبي -ﷺ- يقول: (إذا قام أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسله ثلاثًا)، حديث صحيح رواه ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، هذا لو نظرت إليه من جهة صياغة الدُّنيا فإنه يقول في تمامه: (إذا قام أحدكم من نومه أو استيقظ من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثًا فإنه لا يدري أين باتت يده)، يوجد مَن قال مِن أهل الفقه كما قال بعضهم مثلًا في قوله ﷺ: (البيِّعان بالخِيار ما لم يتفرَّقا)، فقال الفقيه أرأيت: إن كانا في سفينة؟ حينئذٍ هذا ضربُ الأمثال لحديث النبي -ﷺ-، وضرب الأمثال للحديث وللآيات القرآنية إنما هو ابتداءً من أعمال المنافقين ويؤدي بهم إلى إسقاط الحكم الشرعي أي التلعُّب بالنص.

عندما يقول النبي -ﷺ- في الحديث الذي ذكرناه وهو حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-: (فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلهما ثلاثًا فإنه لا يدري أين باتت يده)، هذا نص يستقلُّ عن الغُسل ويستقل عن الوضوء؛ لأن شأن الوضوء وشأن الغسل أمر آخر، الوضوء من أجل تحقيق شرط الصلاة في الطهارة، وكذلك الغسل هو تحقيق لشرط الطهارة في الصلاة، هذا شيء مستقل فإذا لم ينتبه الفقيه إلى شأن ارتباط هذا الحديث بقضيَّة غيبية، ليس لتحقيق عبادة أخرى، اختلَّت لديه المسألة، فصار الناس من أهل العلم والفقه ينظرون إليه مع ارتباطه بالوضوء، هل هو داخلٌ في الوضوء؟ بعضهم قال نعم، فكيف يغمِس؟ هل في يده نجاسة؟ ينظرون إليها لا يوجد ثمة نجاسة، ما هو حكم الماء الذي غمس يده فيه؟ مع ارتباطها بقضية الماء هل هو
طاهر مطهّر؟ هل هو نجس؟ هل هو طاهر غير مطهر؟

فالحديث يتعلَّق بقضية غيبية لا ارتباط لها في موضوع الوضوء ولا تحقيق الطهارة الحُكميَّة التي هي شرط من شروط صحة العبادة العظيمة ألا وهي الصلاة، لا ارتباط في الحديث في هذه المسألة لأن الحديث يعالج قضية غيبية، المرء يغسل يده إما لتحقيق طهارة حكمية وإما لإزالة نجاسة حكمية، إما لتحقيق وضوء أو من أجل إزالة نجاسة وقعت على بدنه، فماذا يفعل في الحديث؟ هذا ليس له دور في هذا الباب، هو

يتحدث عن نجاسة أخرى لها ارتباط بعالم الغيب فإنَّ الحديث يبين في بعض زوائده أن الشيطان يلتقِم يد النائم فربما باتت يده في فم الشيطان، لا علاقة لها بتحقيق الوضوء ولا علاقة لها بإزالة نجاسة حسيَّة علقت في يده، إنما هي لارتباطها بقضية غيبية لا يعلمها الإنسان، وربما يشعر بها وربما لا يشعر، ولكنَّ لها ارتباطًا بعالم الغيب.

فماذا سيتحدث الفقيه إنْ لم يربط الحكم الشرعي بعالم الغيب بهذا النص؟

النبي -ﷺ- يُسأل عن الصلاة في مرابِض الغنم فيُجيزها -ﷺ-، قالوا: يا رسول الله أنُصلي في مرابض الغنم؟ قال: (نعم)، قالوا: أنصلي في معاطِن الإبل؟ قال: (لا)، لو نظرت إلى هذا الحكم وأردت أن تعالجه من باب النجاسة وباب الطهارة لوقع عندك الإشكال، وربما أدى بك إلى تغيير كثير من الفقه اضطرارًا أو الخطأ اضطرارًا كما وقع للأئمة الشافعية في قولهم بنجاسة الأبوال والأزبال للحيوانات المأكولة اللحم، فقالوا: لماذا أجاز لنا في مرابض الغنم ولم يجِز لنا في معاطِن الإبل وكلاهما يؤكل لحمه؟ قالوا: هذه لكثرتها وهذه لقلتها، مرابض الغنم قريبة من البيوت، معاطن الإبل بعيدة، وهكذا بدأوا ينظرون إلى هذه الطريقة في المعالجة. والقضية لا ارتباط لها في هذا الموضوع أبدًا؛ إنما لها الارتباط بقضية حضور الجن للمكان الذي تُصلي فيه.

أرأيت النبي -ﷺ- عندما سار بأصحابه في إحدى غزواته ليلًا حتى إذا وجدوا بردًا أرضي ناموا، فقال: (من يكلؤنا؟) فقال بلال: "أنا"، فقال له رسول الله -ﷺ-: (لعلك تنام)، قال: "لا"، فحرسهم حتى إذا اقترب الفجر نام الفتى كما كانوا يقولون، نام بلال -رضي الله عنه- ولم يوقِظهم إلا حر الشمس، هذا مكان نام فيه النبي -ﷺ- ونام فيه أصحابه ولم يستيقظوا لصلاة الفجر، هناك حديث نُجِلُّ النبي -ﷺ- أن يقع فيه ولكن لأجل شرح المسألة نقول: ذُكر لرسول الله -ﷺ- عن رجل نام حتى أصبح -أي قام لصلاة الصبح ولكن فاته قيام الليل-، فقال ﷺ: (ذاك رجل بال الشيطان في أذنه أو أذنيه)، نام عن الصلاة فهذا رجل بال الشيطان في أذنه، أين قوله ﷺ: (من قرأ آخر آيتين من سورة البقرة كفتاه)؛ أي كفتاه من قيام الليل أو كفتاه من المكروه واقتراب الشيطان منه.

نرجع إلى ما نحن فيه؛ إذًا المكان الذي تفوتك فيه الصلاة هو مكان تحضره الشياطين، النبي -ﷺ- عندما أيقظه صياح عمر توضأ ولم يُرِد -ﷺ- أن يصلي في المكان الذي نام فيه حتى طلعت عليهم الشمس، لماذا؟

لو أراد الفقيه أن يجعلها في موضوع المواقيت سيُدخِلُها بتمَحُّلٍ وتكلُّف، ولا يستطيع، وإنما لها ارتباط بقضية غيبية وهي مسألة الأماكن التي تحضرها الشياطين، هل هو حكم شرعي؟ هذا على خلاف بين العلماء ذكره بعض الأئمة منهم شيخ الإسلام، لو أن رجلًا علم أن الشيطان يحضر صلاته -لو علم!- فهل يجوز له أن يصلي في هذا المكان؟ هذه بحثوها، وثم ذكروا لو أن رجلًا علم أن الشيطان مرَّ من أمامه ويقطع عليه صلاته ماذا يفعل؟!

هذه قضايا من قضايا الغيب ولا يمكن للفقيه من غير ارتباط الحكم الشرعي في ذهنه بعالم الغيب أن يعالجها، إذًا لماذا نهى النبي -ﷺ- أن يصلي الناس في معاطن الإبل؟

لأن الحديث يقول: (إن الإبل خُلِقت من الجن) هذا هو سبب ورود الحكم الشرعي، لارتباطه بعالم الغيب، وأنا ضربت لكم الأمثلة في قضايا مجرَّدة لا ارتباط لها بالصورة المادية البتَّة، هذه القضية غمس اليد للنوم في فم الشيطان، وعدم الصلاة، لا ارتباط لها بأي قضية من عالم الشهادة، وعدم الصلاة في معاطن الإبل لارتباطها بقضية غيبية مجردة.

وأما اشتراك الفعل بارتباطه بعالم الغيب وعالم الشهادة فهذا شأنه عظيم، ارتباط الدعاء، هذا الدعاء ما قيمته؟ أنت ترى واقعه أنه يدعو فيُستجاب له، أما ما يتعلَّق بارتباط الدعاء بما يتحصَّن الإنسان به من عالم الغيب، من ارتفاع الدعاء من الأرض ونزول البلية من السماء، ومقابلتهما في السماء ومصارعتهما إلى يوم القيامة، فهذا لا تراه ولا تحسُّ به ولا تشعر به.

ارتباط الوضوء بخفَّة النفس وطلاقتها لقوله ﷺ: (إذا نام ابن آدم عقد الشيطان على قافيته ثلاث عقد، فإذا قام فذكر الله حُلَّت عقدة، فإذا توضأ حُلَّت الثانية)، وذِكر الله سنة والوضوء شرط للصلاة، حينئذٍ يصبح واجبًا لأن الصلاة لا تقوم إلا به، (ثم إذا صلى حُلَّت الثالثة) يصلي السنة أو يصلي الفريضة حُلَّت الثالثة، ارتبط بحكم شرعي لكن ما هو دوره في تحقيق عالم الباطن؟ قال: (فيصبح طيّب النفس، وإلا أصبح

خبيث النفس كسلان)، هذه الخباثة في النفس بعدم الإتيان بهذه الأعمال كم هي ارتباطها بقراراته و بأقواله خلال نهاره؟ خباثة النفس التي حصلت بعدم ذكره لله أو بعدم صلاته ووضوئه، بالتالي كم هو ارتباطها بكل قراراته خلال النهار؟ فلو قال رجل لآخر: هذا الخبث الذي تقوله إنما هو بترك الصلاة، ذاك لا يفهم ولا يعرف هذا، هو لا يمكن أن يربطه إلا بفهم الحكم الشرعي وارتباطه بعالم الغيب.

ولذلك هناك فرق شاسع بين الطريقة النبوية التي ورثها الأئمة في تعليم الناس الفقه وبينما حصل في الفقه على طريقة المتأخرين؛ انظر إلى طريقة المتون التي أفسدت كثيرًا من تعبُّد الإنسان، مع ما فيها من فائدة من قضية الحفظ، مع أن النص النبوي أولى وأجمل وأكثر شرعيَّة وسهولة وأجرًا حفظه من حفظ المتون، ماذا جرَّت على أمتنا وعلى واقعها؟!

عندما تقرأ كلامًا: "إذا فعل كذا فهو حرام، وإذا قال كذا فهو مكروه، والعمل الفلاني واجب.."، ماذا تؤثر في تديُّن الإنسان من الطريقة النبوية التي ذكرناها ومن كتابة الأئمة للحديث للإجابة على السؤال؟! ولذلك كان من نهي السلف أن يُكتب كلامهم، وأمرهم أن يُجرَّد الحديث النبوي يجرد في الكتابة في الكتب وفي التصنيفات إسلامًا للمرء وتسليمًا له بأن يبقى مع النص دومًا.

هذه الطريقة ينبغي أن تُحيا في الناس كتابةً وإلقاءً وتنبيهًا إلى قضية الغيب.

حتى عندما تقع المصلحة أو تقع الضرورة فيجب بيان الحكم الشرعي في أصله؛ فمثلًا لو أن رجلًا استفتى رجلًا، قال له مستفتيًا: أيجوز أكل الميتة عند الاضطرار؟ أن يسارع إلى الجواب على الاضطرار دون بيان قيمة وحكم أكل الميتة يجرء الإنسان أن يأكلها ويقدّم له خطوة أن يقترفها حتى لو لم يصل إلى درجة الاضطرار، يقول: "نعم يجوز لك أن تأكل الميتة إذا اضطررت"، لكن أن يبيّن له قوله سبحانه وتعالى في حرمة أكل الميتة وعِظم أمرها وأثرها على النفوس وماذا قال فيها الله، وماذا قال فيها رسوله -ﷺ-، ثم يبيّن له درجة الاضطرار التي هي مهلكة للإنسان لبعض بدنه أو لكل نفسه، حينئذ لا يمكن أن يقترفها المرء بسهولة مما يقترفها ذاك الأول، أما أن يُذكر الحكم هكذا من غير بيان قيمة الإثم، ومن غير بيان قيمة الحكم الشرعي تُسهِّل للناس اقتراف المعصية.

أرأيت المفتي عندما يسأله سائل ويقول له: يا شيخ هل يجوز لنا مثلًا أن نأخذ الجنسية من الدول الكافرة؟ ثم ما يتبع ذلك هل يجوز لنا أن نقاتل تحت رايتها ضد خصوم آخرين مهما كانوا من دول طاغوتية مرتدة أو ضد طاغوتية كافرة أصلية؟ أرأيت كيف يُفتي المفتي فيسهّل على الناس المعصية!

أرأيت المفتي عندما يُسأل عن الربا فكأنه يتحدَّث عن نسمة هواء دخلت في أنفه فتأذى منها قليلًا فعطس منها! وهذا هو شأن المنافق، وهذا هو الفرق بين المؤمن الذي يرى معصيته كأنها الجبل تريد أن تنقضَّ عليه وتسقط عليه -كما في الحديث-، وبين المنافق الذي ينظر إلى معصيته كَقَذَاة صغيرة بيده يُبعدها فتذهب عنه.

هذه هي قضية مهمة في تربية أمة النبي -ﷺ- وإعادتها إلى الجِدَّة التي هي تجديد دين الله إلى ما أراد الله -عز وجل-، يجدّدوا لها دينها، وهذا هو الطريق لإعادة ما قاله رسول الله -ﷺ-، إلى خلافة على منهاج النبوة، والخلافة على منهاج النبوة لم تكن مجرَّد حكم لأناس لا يقيمون شأنًا لدين الله، هَمُّ هذه الدولة إقامة الأحكام فحسب؛ بل هي دولة الأمة فيها هي التي صنعتها، وهي التي تذهب بها إلى غيرها من الأماكن، وهي التي تطبق دين الله -عز وجل-..

الخلافة على منهاج النبوة كانت خلافة أمة لا خلافة حاكم، لم تكن الخلافة مجرَّد وجود أبي بكر الصديق ومجرّد وجود عمر، بل كانت خلافة فيها مثل هذين العظيمين، وكانت الأمة فيها تطبق دين الله، ولا يمكن لهذا أن يعود إلا بإعادة صياغة الناس على وفق ما ربَّى رسول الله -ﷺ- أصحابه في تلقِينهم وتعليمهم ورفع درجاتهم..

نسأله -سبحانه وتعالى- أن يهدينا سواء السبيل..

***

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

فيا أيها الأخوة الأحبة؛ هذا يُعِينك بأنَّ عليك أن تقرأ القرآن، عليك أن تقرأه متمعنًا فيه وأن تنظر لا لمجرد الحكم، ومن هنا فإن بعض أهل العلم نبَّه إلى خطأ كتابة ما يسمى بآيات الأحكام، بعض أهل العلم قديمًا

كتبوا في أحكام القرآن، وكتاب الإمام الشافعي في أحكام القرآن ليس له، إنما استُلَّ من كتابه (الأم)؛ أي جاء بعض الشافعية وأخذوا الآيات التي تكلَّم عليها الإمام الشافعي ماذا تكلم عليها وأخرجوها وصنعوا كتابًا سُمي بـ(أحكام القرآن للشافعي) وليس له، كما (المسند للشافعي) ليس له وإنما أُخذ من كتابه (الأم)؛ أُخذت الأحاديث المُسنَدَة من كتاب (الأم) وفُصلت وجُمعت بالمسند للإمام الشافعي.

فالقصد وإن كانت الكتابة متقدّمة كَتَب بها الأوائل، وكذلك المتأخرون في كتب كثيرة كـ(أحكام القرآن) لابن العربي، و(أحكام القرآن) للكيا الهراسي رجل من الشافعية المتكلمين، وغيرهم، كـ(الجامع في أحكام القرآن) للإمام القرطبي وإن كان ليس على هذا النسق إنما هو فسَّر القرآن كله، وما فُعل من المتأخرين كمحمد علي السايس في كتابه (تفسير آيات الأحكام)، وغيرهم كُثُر..

نبَّه بعض الأئمة إلى خطأ هذه الطريقة؛ لأن القرآن كله أحكام، فما ظن الفقيه أن هذه آية يُشتق منها حكم شرعي وهذه آية أخرى لم يرَ فيها الحكم الشرعي، قال أئمتنا هذا خطأ؛ فما مِن آية تقولها إلا وفيها الحكم الشرعي، لو ابتدأنا بقوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} كم فيها من الأحكام؟ الأحكام الجليلة العِظام؛ فيها من العقيدة، وفيها من وجوب حمد الله لأن هذا فِعلٌ لله -عز وجل- الله يحمد نفسه.

وأفعال الرب تشريع -كما ذكرنا في غير خطبة- أن فِعل الرب تشريع، ونبَّه الإمام ابن تيمية في كتابه (المسوَّدة) إلى خطر بعض الأصوليين من نظرهم إلى أن الفقه والحُكم يُؤخذ من أقوال الله ومن أفعال النبي -ﷺ- وأقواله، وقال: بل أفعال الرب حكم شرعي، كاشتقاق الأئمة حكم اللوطي مما فعل الله -عز وجل- من قوم لوط، كيف أخذوها؟ أخذوها من فِعل الرب في هؤلاء القوم بأن جعل عاليها سافلها وأمطر ربنا عليهم حجارة من سجيل فقال إن عباس هذا هو حكم الله فيهم.

فالحمد لله هو فعل الرب، وهو فعل العبد أي يجب عليه أن يحمد الله وأن يشكره. وفي قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} حكم شرعي واعتقاد من الاعتقاد، وهكذا ولو جاء آخر وآخر لاستخرج منها الأحكام الشرعية التي لا يظنها بعضهم، فما من آية من كتاب الله إلا وفيها حكم شرعي.

كما أن كل آية من كتاب الله فيها توحيد الله -عز وجل-، فيها بيان شأنه، صفة من صفاته، أو حق على عبيده، أو نتيجة لهذا الحق..[1].

وأن تنظر إلى كتب التفسير التي خطَّها سلفنا، وأجلُّ هذه الكتب هو ما كتبه ابن جرير الطبري -عليه رحمة الله- في (جامع بيان القرآن) وما اختصره مع زيادة عليه، ما كتبه العماد ابن كثير -عليه رحمة الله- في (تفسير القرآن العظيم). وكذلك في قراءة السنة حتى يترقَّى المرء ويتعامل معها، وانظروا إلى الشهوة العاجلة ماذا تصنع!

الدعوة إلى إحياء فقه السلف كانت عظيمة في بداية الأمر حيث بدأ بعض العلماء في كتابة الأحكام الشرعية على طريقة السلف، وذلك بذِكر النص كقولهم: (صفة صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- كأنك تراها من التكبير إلى التسليم)، فتفتح أنت الكتاب لا تقرأ فيه إلا حديثًا وشرحًا، وكذلك أن تقرأ أحكام الجنائز تقرأ فيها حديث رسول الله -ﷺ- والحكم الشرعي فأنت تعرف الحكم مع دليله، وإذا احتاج الدليل إلى بَسْط فأنت تتمرَّن على اشتقاق الحكم الشرعي من النص، ولكن الشهوة العاجلة والتجارة ومحبة الصيت ومحبة تعجيل المال حيث اختُصِرت هذه الكتب فلم يبقَ منها إلا المتون؛ (متن صفة صلاة الرسول)، (متن أحكام الجنائز)، (اختصار كذا)، (اختصار حجاب المرأة)، كما صنع الأوائل فأدى بهم إلى أن يُقرأ الحديث النبوي لمجرَّد البركة!

وأما كتب الفقه فهي شأن آخر؛ فيها المتون وكلام المتكلمين والأصول العقلية التي لا تمت إلى الطريقة النبوية بصلة!

فالطريقة لإحياء حديث النبي -ﷺ- في نفوس الناس أن يُقرأ هذا الحديث وأن يُشتقَّ منه، وأن يُربَّى الأفراد عليه، وأن تُقرأ الآيات ويُشتق منها، ويُستنبط منها حتى يتربَّى المرء على: قال الله قال رسوله، وهذا هو العِلم..

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتَّمويهِ

(١) انقطاع في الصوت.

مـــا العلـــم نصـــبُكَ للخـــلاف جَهَالـــة بـــين الرســـول وبـــين قـــول فقيـــهِ

نسأله -سبحانه وتعالى- أن يُحيينا على سنة رسوله -ﷺ-، وأن يُحيينا على خوفه ومحبَّته، وأن يُميتنا على الإيمان والتوحيد، وعلى السنة والخير..

اللهم اغفر لنا وارحمنا، اللهم أكرمنا بكرامتك ووفقنا بعمل الصالحات وترك المنكرات وحب المساكين، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير خزايا ولا مفتونين..

اللهم انصر المجاهدين في سبيلك، وأيّدهم بتأييدك، واضرب على يد أعدائهم..

اللهم سدد رميهم، اللهم وفّق بين كلمتهم واجمع بين قلوبهم يا أرحم الراحمين..

اللهم فك أسر إخواننا من المأسورين وأعِدهم إلى أهلهم وذويهم وإخوانهم سالمين يا أرحم الراحمين

اللهم عليك باليهود والنصارى فدمّرهم ولا تُبقِ منهم أحدًا..

وأقم الصلاة..